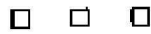


الرهيب في قبضة السيد الرهيب يعرف طريقه جيداً إلى اجسادهم» (ص ١١٥). ومن هذه القرية يتسلل الغدائيون إلى الأرض المحتلة. وعلى اطرافها (غابة) حانية أوجدتها الكاتب تلبية لمطالبات العمل النضالي، حيث يحتمي فيها الفرسان المثلثون بعد تنفيذ عملياتهم. وشمة في عمق القرية مخيم للاجئين أهله غائبون عن الأحداث لانهم ما زالوا نياماً. وهناك نموذج البطل المقاوم... «الفارس ذي الجبين الواسع والثغر المبتسم» (ص ١٤٠) الذي يشق طريقه إلى الوطن. أما «مدام حرب» التي حضرت في البداية كأحجية رغم غيابها، والتي تدير في المدينة بيتاً للدعارة، فاننا نفاجأ بأن لها في القرية نفسها قصراً ملوناً يقبع على إحدى الهضبات، وأن «السيد الرهيب» الذي يمارس القمع ضد الفلاحين هو وكيل هذه السيدة الرميبة!

وإذ تقع الحرب (حزيران - يونيو ١٩٦٧)، التي ادعت الرواية استشرافها كموت - ولادة، فإن أوامام الكاتب تخلقها على هيئة حروب الكواكب والنجوم: «واندهش عصمت عندما رأى جنود العدو، وهم يقطعون الاسلاك الشائكة إلى ظهورهم، واندهش مرة اخرى، وهو يتابع ألبستهم البراقة وأسلحتهم البراقة وخطواتهم البراقة والدقيقة، فكأنهم أتون من كوكب آخر! وما لبثت دهابة براقة أن تبعثهم، وهي تطلق الأشعة المهددة في كل الاتجاهات...» (ص ٢١٥). فإين حدثت مثل هذه الحرب الاشعاعية البراقة؟ الا اذا كان استشراف الكاتب لا يخضع لقوانين الزمان والمكان المحدودة، فيرسم لنا بلا رهبة صورة لحرب ستقع في القرون القادمة... طالما أن (فته) يحمل قدرة النبوءة.



ان الأسئلة الأساسية التي نستثيرها قراءة هذه الروايات الست لأفنان القاسم هي: هل تشفع القضية الكبيرة، الصحيحة والعادلة، لكل الكلمات التي تتسلق أبراجها، فتمنحها صكوك البراءة؟ وهل يكفي «الاخلاص» المبدئي و«العشق» الكامن للامحدود للقضية، وحدهما، لصنع أدب يخدم هذه القضية؟ وهل يحقق الأدب الطليعي و«التقدمي» ذاته ويكرس تقدميته بقدرته على أن يحشد في داخله صور النضالات العمالية، والقمع الطبقي، والعشق الاممي. أو بقدرته على طرح الشعارات بنبرة عالية، إلى جانب تدبيجه لصفحات تعليمية طويلة تشرح مبادئ الاشتراكية العلمية؟

من المؤكد أن قراءة روايات أفنان القاسم لا تنفرد بطرح هذه الأسئلة على صعيد الرواية الفلسطينية، فثمة أعمال أخرى تظل قراءتها تستثير الأسئلة ذاتها. لكن أفنان القاسم يظل متميزاً باصراره التراكمي الذي يجعل من نتاجه «نموذجاً» متكرراً يقتضي الدرس. ومن هنا جاء حرص هذه الدراسة على محاولة الاجابة على تلك الأسئلة من خلاله.

ان قول «غابرييل ماركيز» الذي يشير فيه إلى اعتقاده بأن كتابة الأدب السيء تساهم في عرقلة مسيرة العملية التاريخية نحو الاشتراكية، هو صحيح إلى أبعد الحدود.